

المحاضرة الأولى

فقه اللغة (المصطلح والمفهوم والنشأة)

يحسن بمن يبدأ دراسة فقه اللغة أن يبدأ بالمصطلح أولاً، من حيث اللغة في المعجم، ومن حيث المفهوم، ويقف على مدى ارتباط التعريف اللغوي بالتعريف الاصطلاحي، ولا سيما في غمار فوضى الاصطلاحات التي رافقت انبثاق العلوم وتفرعها في العصر الحديث.

فقه اللغة هو اسم مركب من جزءين: فقه، ولغة، فأما الفقه في اللغة فمن « فقه فقها: بمعنى علم علماً»¹، والفقه هو « العلم بالشياء والفهم له»²، ويرى بعض العلماء أن هناك فرقاً بين العلم والفقه، يتمثل هذا الفرق في خصوصية الفقه وشمولية العلم، كما ينقل القرافي* في هذا السياق كلاماً لأبي إسحاق الشيرازي نصه: «الفقه في اللغة إدراك الأشياء الخفية فلذلك تقول: فقهت كلامك ولا تقول: فقهت السماء والأرض»³، إذن فبين كلمتي فقه وعلم عموم وخصوص، والفقه أخص، يقول الراغب الأصفهاني: «الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم»⁴.

وقد جاءت لفظة (فقه) في القرآن مرات عديدة، تحمل في كل منها تلك الخصوصية في دلالة العلم، نذكر منها قوله تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)، وقوله تعالى: (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)، وكلمة (الفقه) لصيقة في التراث بالعلوم الشرعية والعقيدة والعلم بالأحكام الفقهية، فلا تُطلق كلمة الفقه إلا وعُني بها العلم بالأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، ولا يُصرف هذا المعنى إلى معنى آخر إلا بقريضة صارفة.

أما كلمة (اللغة) فقد جاء في لسان العرب: «وأصلها لغوة من لغا إذا تكلم»⁵، فاللغة تعني الكلام، هذا من حيث تعريفها اللغوي، أما من حيث الاصطلاح فإن أشهر تعريف للغة هو ما جاء به ابن جني حيث يقول: «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»⁶، إن مدار هذا التعريف على أربعة أصول: الأول أن اللغة عبارة عن أصوات منطوقة، والثاني أن وظيفتها هي التعبير عن أغراض

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف/ القاهرة، (دت)، مادة فقه، ص 3450.

² المصدر نفسه، ص 3450.

* هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، ولد سنة 626هـ، فقيه أصولي، توفي سنة 684هـ.

³ القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، دار الفكر، بيروت، 2004م، ص 21.

⁴ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، دت، ص 496.

⁵ لسان العرب، مادة لغا، ص 4049.

⁶ ابن جني، الخصائص، دار الهدى، بيروت، ط 02، دت، ص 33.

الناطقين، والثالث أنها ظاهرة اجتماعية توحى بها عبارة (كل قوم)، والرابع أن لكل قوم لغة خاصة بهم، وهذه الأركان كثيراً ما تناولها الدارسون للغة حديثاً، وبالرغم من التوسع من قبل المحدثين أكثر في تحديد وسائل التواصل والتعبير المختلفة إلا أن الأصوات المنطوقة تُعد هي الوسيلة الأشهر للتواصل والتعبير عن الأغراض والمقاصد.

وبالنظر إلى ما سبق يمكن تحديد التعريف اللغوي لـ (فقه اللغة) بأنه العلم باللغة والفهم لها، وإدراك ما خفي منها.

وأما التعريف الاصطلاحي لفقه اللغة، فهو مصطلح يُطلق « على العلم الذي يُعنى بدراسة قضايا اللغة؛ من حيث أصواتها، ومفرداتها، وتراكيبها، وفي خصائصها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وما يطرأ عليها من تغييرات، وما ينشأ من لهجات، وما يثار حول العربية من قضايا، وما تواجهه من مشكلات إلى غير ذلك »¹، وفقه اللغة هو « العلم الذي يحاول الكشف عن أسرار اللغة، والوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتها، ومعرفة سر تطورها، ودراسة ظواهرها المختلفة، دراسة تاريخية من جانب، ووصفية من جانب آخر »²، وبعبارة موجزة، فقه اللغة هو العلم الذي يُعنى بفهم اللغة، ودراسة قضاياها وموضوعاتها، يتضح من هذا التعريف أن فقه اللغة ميدان واسع جداً، يشتمل على الكثير من القضايا والموضوعات اللغوية المختلفة والمتنوعة، والدراسات الوصفية والتاريخية.

نشأة فقه اللغة:

ظهر مصطلح فقه اللغة مع اللغوي أحمد بن فارس (ت 395هـ) في القرن الرابع الهجري، إذ وضع كتاباً سماه "الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها"، وهذا أول ظهور للمصطلح في التراث العربي كعنوان لكتاب، ضمّن فيه صاحبه كثيراً من مسائل فقه اللغة، مثل نشأة اللغة، واختلاف لغات العرب، وظاهرتي القياس والاشتقاق في العربية، والترادف، ونحو ذلك، ثم استعمل هذا المصطلح أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ) أيضاً في عنوان كتاب أسماه " فقه اللغة وسر العربية"، إلا أن هذا الكتاب كان أقرب إلى الصناعة المعجمية منه إلى طرق أبحاث فقه اللغة على عمومها، باستثناء باب (سر العربية) منه، فهو في بناء الجملة، وقد ألف ابن جني (ت 392هـ) كتاب "الخصائص" في فقه اللغة ولم يحمل كتابه هذا المصطلح، مع أنه أجدر به من غيره؛ لما تضمنه من موضوعات هي من صميم فقه اللغة، وكذلك فعل ابن سيده (ت 458هـ) في كتابه "المخصص"، والسيوطي

¹ محمد بن إبراهيم الحمد، فقه اللغة مفهومه - موضوعاته - قضاياها، دار ابن خزيمة، الرياض، ط 01، 2005م، ص 19.

² رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 06، 1999م، ص 09.

(ت911هـ) في كتاب "المزهر في علوم اللغة وأنواعها"، ويعد كتاب المزهر من أدنى المؤلفات إلى فقه اللغة وألصقها به، لما اشتمل عليه من موضوعات كثيرة تمس فقه اللغة، كنشأة اللغات والمصنوع والفصيح، والحوشي والغريب، والمعرب والمولد، والاشتقاق والترادف والاشتراك والنحت وغيرها من الموضوعات.

والظاهر أن ابن فارس والثعالبي اللذين استعملتا مصطلح (فقه اللغة) لم يستعملاه بمدلول خاص، وإنما استعملاه اختياراً لا على سبيل التعيين، ذلك أنهما لم يكونا يفرقان في الدلالة بين فقه اللغة وعلم اللغة¹، ويعضد هذا وجود كتب أخرى تتناول قضايا اللغة وأبحاث فقه اللغة، لم يرد فيها المصطلح المذكور، كالمصنفات النحوية والبلاغية، والمعاجم بمختلف أصنافها، ووجوه القراءات الشاذة والمتواترة وغيرها.

ويرى الدكتور كمال بشر أن فقه اللغة قد نشأ أول أمره على نوعين رئيسيين من الأبحاث اللغوية، الأول منهما يشتمل على البحث في المعاجم وما يتعلق بها من مشكلات المفردات وترادفها ونحتها واشتقاقها، وصورها المجازية والحقيقية، والثاني يتضمن الدراسات العامة التي تمهّد للعلوم الكلام في أصل اللغة ووظيفتها، واللهجات وتنوعها، وفكرة القياس والتعليل، وفي العصر الحديث لم يزل فقه اللغة يبحث في هذه القضايا وأضرابها².

بين فقه اللغة وعلم اللغة:

عمد بعض الدارسين والباحثين في اللغة إلى عدم التفريق بين فقه اللغة وعلم اللغة، وذهبوا إلى أنهما من قبيل الترادف، ومن هؤلاء الأستاذ علي عبد الواحد وافي، الذي ألف كتاباً بعنوان "علم اللغة" وضمّنه مباحث وقضايا فقه اللغة، وقد صرّح هو نفسه بعدم التفريق في قوله: «أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة، أشهرها اسم "فقه اللغة". وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث»³، فهما - أي المصطلحان - شيء واحد، إلا أن فقه اللغة عند علي عبد الواحد وافي هو ما اتصل منه خاصة باللغة العربية، وكذلك من هؤلاء الأستاذ: محمد المبارك، مشيراً إلى أن المصطلحين قد استعملهما معاً علماؤنا القدامى لمفهوم واحد، كما نادى صبحي الصالح بعدم التفريق بين علم اللغة وفقه اللغة، لتقاطع مسالكهما، وصعوبة وضع الحدود بينهما⁴.

¹ يُنظر: إميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، بيروت، ط 01، 1982م، ص 40.

² يُنظر: المرجع نفسه، ص 31.

³ علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، نهضة مصر، ط 09، 2004م، ص 15.

⁴ يُنظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط 03، 2009م، ص 19.

بيد أن أغلب الباحثين المحدثين ذهبوا إلى أن هناك فروقا بين علم اللغة وفقه اللغة، بالرغم من عدم انفصالهما انفصالا تاما، ومن هؤلاء كمال بشر وعبد الرأجي، إذ توصل هذا الأخير إلى أن فقه اللغة أوسع وأشمل من علم اللغة، يقول: «علم اللغة كما رأينا يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها بينما يعالج فقه اللغة موضوع اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية أخرى، فميدانه أوسع وأشمل... الفرق إذن واضح بين المنهجين»¹.

وتتمثل الفروق بين علم اللغة وفقه اللغة عند من يفرقون بينهما في²:

– أن منهجية فقه اللغة تتمثل في دراسة اللغة كوسيلة لدراسة الحضارة أو الأدب من خلال اللغة، بينما تدرس منهجية علم اللغة لذاتها وفي ذاتها كما يؤكد دي سوسير، فالتمييز إذن يكون باعتبار اللغة وسيلة في فقه اللغة واعتبارها غاية في علم اللغة.

– أن مجال فقه اللغة أوسع وأرحب من مجال علم اللغة، حيث إن الغاية من فقه اللغة هي دراسة الحضارة والأدب، والبحث عن الحياة العقلية من جوانبها المختلفة، بينما يركز علم اللغة على اللغة تركيبيا ووصفا، وهذا هو مجال علم اللغة الأساسي.

– أن مصطلح فقه اللغة أسبق في الوجود من مصطلح علم اللغة من الناحية الزمانية.

– أن علم اللغة علم قائم بذاته، فمنذ نشأ على يد دي سوسير نشأ علما خالصا، بينما لا نجد أحدا اعتبر فقه اللغة علما.

– أن منهج فقه اللغة منهج تاريخي مقارنة في أغلبه، ومنهج علم اللغة تقريرى وصفي.

إن علم اللغة لا يهتم إطلاقا بالفوارق بين اللغات، فهو يجمعها على صعيد واحد، و«يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص، التي تجمع اللغات الإنسانية كلها في إطار واحد»³، بينما يتناول فقه اللغة فيما يتناول علاقات اللغات ببعضها، ومدى التأثير والتأثير الحاصل بينها.

ومن نافلة القول إن فقه اللغة يدرس اللغة وفق أربعة مستويات هي⁴:

¹ عبده الرأجي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 25، 26.

² يُنظر: فقه اللغة العربية وخصائصها، ص 33.

³ فصول في فقه العربية، ص 12.

⁴ يُنظر: فقه اللغة العربية وخصائصها، ص 35، 36.

– المستوى الصوتي: يدرس فقه اللغة الأصوات وفق هذا المستوى، فإن كانت الدراسة مركزة على صفات الأصوات دون وظائفها، فهي ميدان علم الأصوات العام، أو phonetique، وإن كانت من ناحية وظائفها فنحن أمام علم الأصوات التشكيلي أو الفونولوجيا phonologie.

– المستوى الصرفي: morphologie يدرس الصيغ اللغوية والوحدات الصرفية.

– المستوى النحوي: ميدانه الجملة ودراسة عناصرها وتركيبها

– المستوى الدلالي: يدرس معاني الألفاظ مفردة كانت أو جملا.

الفيلولوجيا:

هذا مصطلح جديد وافد من الغرب، يتركب من كلمتين يونانيتين: phylo وتعني محبّ أو صديق و logos وتعني الكلام أو الكلمة، فالكلمة المركبة فيلولوجيا تعني صديق الكلام أو كلمة، أو محب الكلام أو الكلمة، والفيلولوجيا هي «بحث غير محدد النطاق ولا متميز الحدود»¹، يطلقه الغرب على معنى يضم كل الدراسات اللغوية التي تبحث في نشأة اللغة واحتكاك اللغات المختلفة ونشأة اللغة الفصحى واللهجات أو تبحث في أصوات اللغة ودلالات الألفاظ وفي العلاقات النحوية وغير ذلك، وبهذا المعنى فالفيلولوجيا لا تختلف عن فقه اللغة من حيث التعريف، في حين نجد هذه الكلمة قد تحددت عند الألمان بدراسة تاريخية مقارنة للنصوص اللغوية لمحاولة فهمها، مع الاستعانة بذلك في دراسة فروع أخرى يبحث فيها علم اللغة².

¹ علم اللغة، ص 14.

² يُنظر: فصول في فقه العربية، ص 09.